الفصل الثانى

المنهاجان : الأخلاقى والاجتماعى

المقدمة : الإنسان بلا إسلام

عندما يغيب الإسلام عن مسرح الحياة لا يبقى شىء فى الأرض فى محله، ولا يبقى شيء ثابتاً، تختل المقاييس، وتزول المعايير، ويصبح حرام الأمس حلالاً، وحلال الأمس حراماً، وما يقر اليوم يلغى غداً، وما يثبت غداً يلغى بعد غد، وتنطلق أهواء لتعبر عن نفسها بنظريات متضاربة متناقضة، لا يعرف الإنسان بها ومعها لنفسه مدخلاً أو مخرجاً، فيحار ويدور ولا يكف عن الدوران، ومهما تصور أنه عارف ماذا يعمل فإنه فى الحقيقة لا يدرى لماذا يعمل، ولماذا يريد . . كل جيل يريد أن يعبر عن ذاته بشكل مختلف عن الجيل الذى قبله، وكل فرد فى جيل يريد أن يعبر عن ذاته بشكل مختلف عن الآخر، وليس هناك أصل يرجع الناس إليه، أو يعترفون به، فلا تقوم على أحد حجة، ولا يخضع إنسان لرأى، ومهما أراد أحد أو سلطان أن يرد الناس إلى نظام، فإنهم يستعصون عليه . أليس الإنسان حراً؟

ويومئذ يصبح البشر نوعاً من الحيوانات السائمة تماماً، بل لعله فى هذه الحالة يكون أردأ أنواع الحيوانات إذ أنه سيسخر إمكاناته العلمية فى طريقها المنحرفة، فيأتى بما لا يستطيع أى حيوان مهما كان شريراً أن يفعل أقل منه بآلاف المرات .

وهذا الكلام هو واقع الإنسان اليوم، وسيزداد هذا الواقع سوءاً، وإلا فماذا تعنى كثرة الإجرام، مع ازدياد أجهزة الأمن؟ وماذا تعنى أجيال الفوضويين والخنافس؟ وماذا تعنى العلاقات الجنسية المطلقة؟ وماذا يعنى ارتفاع نسبة المصابين بالشذوذ الجنسى حتى لتبلغ فى بعض البلاد سبعين بالمئة من الرجال وهى عادة يأباها الحيوان؟ وماذا تعنى هذه النظريات المطروحة يومياً بحيث تجعل كل شىء متناقضاً؟

إن غياب الإسلام عن العالم لا يبقى معه شىء فى محله، لأن الإسلام هو الأصل الربانى الوحيد الصحيح السليم عن الإنحراف والتحريف، وهو وحده الذى تستطيع البشرية أن تفيء إلى ظله، وبدون هذا فإن كل شىء فى الإنسان وللإنسان يضيع، ودعنا نستعرض قضايا خمساً هى أهم شىء بالنسبة للإنسان : الدين – العقل – المال – النفس – النسل . لنجد بوضوح كيف أن هذه تضيع بلا إسلام ولندرك بالتالى ضياع الإنسان بلا إسلام .

١ – الدين :

فتح المسلمون الأندلس وكانوا فيها ملايين، ثم غلبوا عنها، فماذا بقى من هذه

الملايين؟ إنك الآن لا تجد مسلماً واحداً هناك. وفتحنا مصر وكان فيها نصارى، وبلاد الشام وكان فيها نصارى ولا يزالون حتى الآن موجودين، لا يحفظ لنا التاريخ حادثة إكراه واحدة من أجل تغيير العقيدة، فضلاً عن القتل من أجل هذا التغيير. وحكمنا الهند قرونا وكان بإمكاننا ألا نبقى مخالفاً لديننا هناك، ولكن لم تحدث أبداً حادثة إكراه واحدة على تغيير الدين، ولذلك بقى غير المسلمين فى الهند أكثر بمقدار الضعف من المسلمين.

ملك من ملوك بريطانيا يبلغ عدد قتلاه من شعبه مئة ألف لأنهم خالفوه فى المذهب فقط، لا فى أصل الدين، ومن قوانينه: أن الهرطوقى إذا تاب يرحم، ورحمته أن يقتل بالسيف بدل الإحراق فى النار، والهرطوقية، إذا تابت ترحم، ورحمتها أن تدفن حية بدل أن تحرق (هذا بعد التوبة) ومحاكم التفتيش، ومذابح البروتستانت كلها تعطيك شواهد على أنه فى حال غياب المسلم عن مسرح العالم فلن يحفظ على الإنسان دينه الذى ارتضاه لنفسه، أما فى حالة وجوده فهذه هى الشهادات:

يقول البطريرك (عيشوياية) عام ٦٥٦ هجرية:

(إن العرب الذين مكنهم الزمن من السيطرة على العالم يعاملوننا بعدالة كما تعرفون) ويقول مكاريوس بطريرك انطاكية: (أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان سواء أكان رعاياهم مسيحيين أو ناصريين يهوداً أو سامرة) ويقول أرنولد: (حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى التركى، لعلهم يحظون كما حظى رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما فى ظل أى حكومة مسيحية).

ويقول أرنولد: (وحدث أن هرب اليهود الأسبانيون المضطهدون فى جموع هائلة، فلم يلجأوا إلا إلى تركيا فى نهاية القرن الخامس عشر).

ويقول ريتشارد ستيبز من أبناء القرن السادس عشر: (وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب.. سمحوا للمسيحيين جميعا للإغريق منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا، بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة فى القسطنطينية، وفى أماكن أخرى كثيرة جداً، على حين أستطيع أن أؤكد بحق بدليل اثنتى عشرة عاماً قضيتها فى أسبانيا، إننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب، بل إننا فى خطر على حياتنا وأحفادنا).

ومن أراد أن يرى حقائق التاريخ تتكلم فليقرأ كتاب الدعوة إلى الإسلام – لأرنولد – ففيه آلاف الشهادات أن الإسلام الذى يأمر أتباعه ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ سيكون أبدا الوحيد الذى يحمى الإنسان من أن يكره على ضميره أو على عقيدته. فالفتح عندنا لا يعنى الإكراه.

وفى عصرنا هذا الذى يقال فيه أن الحرية الدينية مصونة للجميع نجد العكس تماماً. إن الحرية الدينية مغتالة جهراً أو ضمناً، لدرجة أن أبناء الدين أنفسهم غير مؤتمنين على حفظ دينهم، فضلاً عن أن يؤتمنوا على حفظ دين غيرهم. فى الاتحاد السوفييتى والبلاد الاشتراكية عامة يفرض تعليم الماركسية الإلحادية، وتحرم الدعوة إلى الأديان، ونظرة واحدة على الاحصائيات تعطينا صورة عما تتمتع به هذه البلاد من حرية دينية (احصائيات الكنائس التى لم تبق كنائس، والمساجد التى لم تبق مساجد، والخمسين مليونا من المسلمون الذين يصبحون فى سنوات عشراً...) واقرأ هذه الآية: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

فى الاتحاد السوفييتى والبلدان الاشتراكية واضح كيف تغتال الحرية الدينية جهراً، أما فى البلدان الرأسمالية وغيرها فتغتال الحرية الدينية أحياناً جهراً وأحياناً سراً، وما عملية اجتثاث الإسلام من أريتريا عنا ببعيدة. وما مقتل مالكولم اكس عنا ببعيد.

فالحقيقة الكاملة أنه لن يحفظ على الإنسان دينه إلا إذا كان الإسلام حاضراً.

٢ - ولن يحفظ على الإنسان عقله: إلا إذا كان الإسلام قائماً، وأى تجربة للحكم فى العالم يرافقها أى مضمون تثبت أن صالح العقل لم يكن فيها إلا إذا كان ذلك حكم المسلمين بالإسلام.

فمن مظاهر إهمال العقل فى عصرنا الحاضر التى تدل على أن عصرنا وأنظمة الحكم فيه، مع أنها تدعى أنها ذروة ما وصلت إليه الإنسانية ليست لصالح العقل. ما يلى:

(أ) إن أنظمة الحكم اليوم فى العالم تدعى العلمانية، ولكنك تجد العلم فى جانب والواقع فى جانب، فالعلم يقول إن الخمرة مضرة، والواقع يقول إنها مباحة فى أنظمة كل دول العالم تقريباً، والعلم يقول إن الدخان مضر، والواقع يقول إن دول العالم كلها تشجع عليه، والعلم يقول إن الزنا ليس لصالح الجنس البشرى، والواقع أنه مباح عندهم، والعلم يقول إن المرأة تختلف عن الرجل، والواقع يقول يجب أن نجعلها - غصبا عن كل شىء - كالرجل.

(ب) وفى عصر العقلانية تجد الأكاذيب تنشرها الجرائد والمجلات والإذاعات بدون حساب، والإشاعات الملفقة بلا رقيب، وتحريف الحقائق لتبرير الجرائم بدون وازع، بحيث أصبحت السياسة وتوابعها مركبات من الكذب والخداع، ويستخدم لهذا كله حقائق علم النفس وروح الاجتماع، فأى عقل يبقى للإنسان إذا كان ما يغذى به هذا العقل مجموعة الأخطاء والأضاليل.

(جـ) وفى حالتين يساء إلى العقل : حالة ما إذا كان العقل يفرض عليه نوع من الفكر لا يسمح له بنقده، أو البحث فيه، أو التأمل والمناقشة. وحالة ما إذا أطلق للسان أن يقول بدون تعقل، بل لمحض الهوى والشهوانية والشطط. وكلتا الصورتين تجدهما أمامك حيث لا إسلام. ففى المجتمع الشيوعى، أن تفكر جريمة، وفى المجتمع الآخر أنت حر أن تقول لو خالفت المعقول. إن المظاهر التى تدل على أن ما يجرى فى العالم ليس لصالح العقل كثيرة، والاحصائيات تثبت هذه الحقيقة، فنسبة الذكاء فى العالم تتناقص، ونسبة الأمراض العقلية فى العالم ترتفع. يقول (ديل كارنيجى) : (من الحقائق الموضوعة أن نصف عدد الأسرة التى فى مستشفياتنا يشغله أناس يثقلهم الإرهاق العصبى والعقلى) .

إنه لا يحفظ على الإنسان عقله إلا إذا كان الإسلام حاضراً.

٣ - حفظ النفس : إن حق الحياة حق مقدس للإنسان إلا فى حالات :

﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

فليس شيء سهل أن يقتل الإنسان الكريم **﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾** [الإسراء : ٧٠] ولكن حيث يغيب الإسلام عن العالم يصبح قتل النفس كشربة ماء بمبرر وبغير مبرر.

فى عصرنا هذا الذى يقال عنه عصر المدنية تجد هذه الحقائق :

(أ) قتل فى روسيا من أجل تنفيذ الشيوعية وتحقيقها ١٩٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة، وحكم على نحو ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة بعقوبات فادحة مختلفة، ونفى عن البلاد نحو ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ إلى ٥٠٠٫٠٠٠ نسمة، فماذا تعنى هذه الأرقام؟ هل تعنى أن هناك قيمة للنفس البشرية؟

(ب) ماذا يعنى اغتيال السود لأنهم سود فى أمريكا أو جنوبى أفريقيا، ماذا تعنى القنابل الذرية والهيدروجينية؟ ماذا تعنى المذابح الجماعية فى كل بلد مستعمر؟ ماذا تعنى المجازر فى البلدات غير المستقرة التى يتصارع أهلها على السلطة؟ ماذا تعنى المجازر للخصوم السياسيين المعارضين فى كثير من البلدان؟ ماذا تعنى المجازر التى تقع كل فترة فى الهند من أجل الاجهاز على المسلمين؟ ماذا تعنى القصور المبنية من الجماجم؟ ماذا تعنى الحروب العالمية؟ إن هذا كله يعنى أن النفس البشرية لا قيمة لها.

ولكن حيث يكون الإسلام موجودا فلا تقتل نفس إلا بحق.

٤ - حفظ المال : إن المال عديل الروح كما يقولون، ويقول الله عن الإنسان : **﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾** [العاديات : ٨] . **﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾** [الفجر : ٢٠]

لذلك كان شيئاً أساسياً أن يحفظ على الإنسان ماله، وضرورياً كما أن الحياة ضرورية، ولكن حين يغيب الإسلام يضيع كل شيء.

إن الظاهرة التى حدثت فى حمص يوم خرج منها أبو عبيدة بن الجراح عجزاً عن حمايتها فرد إلى أهلها النصارى أموال الجزية التى أخذها منهم، كانت تعنى ميلاد عدالة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، وميلاد مجتمع جديد لا مثيل له فى العالم، مجتمع يعطى الإنسان كل مقومات حياته ووجوده.

قارن هذه الظاهرة بما يفعله الاستعمار فى أرض وطئها، أو قارن ما يحدث فى مجتمع إسلامى حق حيث لا يأخذ إنسان مالا إلا بحق، ولا يؤخذ منه مال إلا بحق.. بالمجتمع الشيوعى أو الرأسمالى المعاصرين.

فى المجتمع الشيوعى لا تسل عن حق التملك، فهو وحق الحياة مهدران وهذا شيء واضح. وفى المجتمع الرأسمالى يحفظ على الإنسان ماله ظاهرياً، ويسرق منه حقيقة بالربا والاحتكار والاستغلال، وهضم حقوق الفقراء والمعوزين والطرق الفاجرة الداعرة..

إن مال الإنسان لا يحفظ للإنسان إلا بالإسلام، فلن تعطى ظالماً، ولن يؤخذ منك مظلوماً.

٥ - حفظ النسل: وحفظ النسل عليه يتوقف بقاء جنس الإنسان، ومن ثم كان ضرورياً من الضروريات الخمس للإنسان.

ولن يحفظ على الإنسان نسله إلا إذا كان الإسلام قائماً، والمسلمون أوصياء على العالم، فحينئذ يبقى نسل الإنسان ويحفظ.

ودراسة بسيطة لما عليه العالم اليوم تبين بوضوح إلى أين يسير النسل البشرى. ففى فرنسا مثلا، لا تزال تهبط فيها نسبة المواليد منذ ستين عاماً متوالية).

(ومن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسى يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية للمتطوعة للجيش الفرنسى على فترة كل بضع سنين) ومثل هذه الظاهرة أخذت تتجلى فى الشباب الأمريكى فقد أعلن رئيس الولايات المتحدة أن أكثر من مليون شاب أمريكى لم يصلحوا للخدمة العسكرية من بين ستة ملايين تقدموا للتجنيد، وعزا ذلك إلى ضعف بنية الشعب الأمريكى بصفة عامة نتيجة لحياة الترف التى انغمس فيها.

ومن (فيينا) تأتى الأنباء لتقول أن المرأة سائرة نحو حالة تصبح فيها جنساً ثالثاً، فلا هى ذكر ولا هى أنثى، ومظهر هذه الحالة ظهور حالات عدم الحمل على كثير من النسوة دون سبب من أسباب العقم، نتيجة لفقدان خصائص أنوثتها بسبب مشاركتها المطلقة للرجل فى أعماله.

وفى السويد انخفاض مستمر فى نسبة المتزوجين، إلى غير المتزوجين، وارتفاع مستمر فى نسبة عدد المواليد غير الشرعيين، مع ملاحظة أن ٢٠ فى المائة من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبداً، ونسبة الطلاق فى السويد هى أكبر نسبة فى العالم كله، وأن طلاقاً واحداً يحدث بين كل ست أو سبع زيجات طبقا للاحصاءات التى أعدتها وزارة الشئون الاجتماعية بالسويد.

ومن فرنسا مرة ثانية: إن عدد الجنود الذين اضطرت الحكومة إلى أن تعفيهم من العمل وتبعثهم إلى المستشفيات فى السنتين الأوليين من سنى الحرب العالمية الأولى لكونهم مصابين بمرض الزهرى خمسة وسبعون ألفاً، وابتلى بهذا المرض وحده - ٢٤٢ - جندياً فى آن واحد فى ثكنة متوسطة، ومثل هذا المرض يؤثر على النسل تأثيراً هائلاً، ففى أمريكا يموت ما بين ثلاثين وأربعين ألف طفل بمرض الزهرى الموروث وحده فى كل سنة.

إن ما يحدث اليوم فى العالم ما يلى: ٩٥ فى المائة من العلاقات الجنسية الحاصلة اليوم بين الرجال والنساء يحولون بينها وبين نتائجها الفطرية، بتدابير منع الحمل، وأما الخمس الباقية فى المائة التى تنتج الحمل فتعالج بتدابير أخرى من الإسقاط وقتل الأولاد. يقول القاضى (لندسى): إنه يسقط فى أمريكا مليون حمل على أقل تقدير فى كل سنة ويقتل الآلاف من الأطفال من فور ولادتهم.

وعار على البنت الألمانية أن تبقى بكرا وأدوات منع الحمل موجودة فى كل طريق.

فهل هذا كله لصالح النسل البشرى؟

إنه لا يحفظ النسل البشرى حفظاً تاماً إيجاداً ووجوداً ومقومات حياة إلا إذا كان إسلام.

وبعد: إن الإنسان بلا إسلام يقتل نفسه، ويظلم نفسه، ويعيش حياة الألم مهما أخذ حظه من اللذة العابرة، وإن الإنسانية بلا إسلام تدمر نفسها، وتهدم سعادتها، وتعيش حياة الشقاء الدائم حتى فى هذا العالم الذى لا يدوم. وسنحاول فى هذا الفصل أن نعطى صورة موجزة عن الإسلام فى منهاجه الأخلاقى والاجتماعى ليعرف الإنسان إلى أى شىء ندعوه؟

وسنكتب فى ذلك ثلاثة أبواب:

الباب الأول - نظرة تحليلة لوضع الإنسان فى الإسلام من حيث كونه مسلماً أو كافرا، رجلا أو امرأة، مع إيراد نصوص من السنة النبوية حول هذا الموضوع.

الباب الثانى - تميز الفرد المسلم، والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة أخلاقياً.

الباب الثالث - الأخلاق الإسلامية إرتقاء بالإنسان إلى كمالاته كلها.

* * *